النظرية الإثنوغرافية للغة لمالينوفسكي

أ/ مليكة بلقاسمي
المعهد العالي لمهن فنون العرض والسمعي البصري
برج الكيفان / الجزائر

إن الفكرة القائلة بوجود علاقة بين اللغة والمجتمع "اللغة حدث اجتماعي " ليست فكرة جديدة، ولا وليدة الدراسات الاجتماعية، وإنما الفكرة تمتد إلى القرن 19 مع هامبولت (HUMBOLDT) وبايك (PIKE) وورف (WORF) وسابير (SAPIR)، مرورا بميي (MEILLET) ووصولا عند واينرش ولبوف (LOBOV. W) وهايمس، وفشمان وغيرهم من اللغويين المحدثين. بل إننا نجد ميي يثبت هذه الطبيعة الاجتماعية حين يقول؛ إن "اللغة هي إذن دوما أبدا حدث اجتماعي"[1]، ذلك أنها أي" اللغة لا توجد بمعزل عن الأشخاص الذين يتداولونها"[2]، حتى أننا لا نكاد نجد مدرسة من المدارس اللسانية سواء أكانت المدرسة الوظيفية أم المدرسة التوزيعية أم التوليدية أم غيرها من المدارس المعاصرة تتكر الفكرة كتصور نظري.

لكن الجديد اليوم، أن ترتقي هذه الفكرة إلى نظرية تدعم الفكرة القديمة، وتبرهن على صحتها بالدليل العلمي وبالبحث الميداني، على يد الأنثروبولوجي مالينوفسكي. الجديد أيضا أن يلتف حولها معظم - إن لم نقل كل مخافة المبالغة- اللغويين الإنجليزيين ويؤسسوا مدرسة لغوية مستقلة تتبنى النظرية، بعدما تنقحها، وتحدد مهمة اللسانيات في الوصف العلمي، كما سبق أن حدد لها هذه المهمة مؤسس اللسانيات الوصفية سوسور لكنها تضيف إلى هذا التحديد، ضرورة وصف اللغة في سياقها الاجتماعي، وفي تفاعلها مع المجتمع ومع الثقافة. مالينوفسكي يسمي نظريته التي جعلها عنوانا لفصل من أهم فصول كتابه (CORAL GARDENS AND THEIR MAGIC) بـ "النظرية الانتوغرافية للغة" (THEORIE ETHNOLOGIQUE DU LANGAGE).[3] وكتابه هذا يعد بالفعل تأسيسا للسانيات الأنثروبولوجية، ويعد أيضا بالإضافة إلى مؤلفات مالينوفسكي الأخرى مميزا في مجال تطوير البحوث اللسانية الحديثة.

أهمية نظرية مالينوفسكي لا تنحصر في كونها جمعت بين البحث النظري والبحث الميداني الذي يشترط التحكم في تقنيات التحري الميداني، هذا التحري الذي لا يتصور

مالينوفسكي أن يخلو منه أي بحث ولا أن يغفل عنه أي دارس، « الأنتروبولوجي لا بد أن تكون له أعين وآذان: لابد أن يحضر شخصيا للأعراف، للنشاطات، وللمراسيم، ...» [4] ، إنما تنحصر في كونها ، إلى جانب ذلك، أرادت أن تكون نظرية تستثمر كل معارف الحقول العلمية الأخرى، وتنصهر فيها خدمة للغة وللإنسان. هي إذن ليست نظرية في الأنثروبولوجيا فحسب، وإنما هي نظرية تسعى إلى دراسة الإنسان ككل متكامل؛ في بعده النفسي العاطفي، وفي بعده الاجتماعي العلاقاتي، وفي بعده الثقافي الفكري. فمالينوفسكي يؤكد ذلك في مقدمة أحد كتبه حينما يجعل أهم شرط من شروط " قبول العمل الأنثروبولوجي هو ضرورة تعامله مع مجموع المظاهر الاجتماعية، الثقافية والنفسية للمجموعة اللسانية، لأنها في تحاور فلا أحد بإمكانه الفهم إذا لم يأخذها بعين الاعتبار "[5]

فضرورة تعاون كل فروع العلوم الإنسانية، وحسن الاستفادة من معارفها، ونتائجها ومن مناهجها؛ ضرورة علمية، وشرط من أهم شروط الدراسة الأنثروبولوجية، لم يفرضها مالينوفسكي من تلقاء نفسه، أومن محض المصادفة، إنما تأكيده وإصراره يعودان إلى "طبيعة اللغة" أو إلى "حقيقة اللغة"، هذه الحقيقة التي كشفت عنها أبحاثه الميدانية.

أولا: اللغة قوة ثقافية لا بنية ذهنية ولا نفسية:

هذه الحقيقة التي جعلت مالينوفسكي يلح على رفض التصور الشائع، والمكرّس في الدراسات اللغوية عند المتقدمين المتأثرين بمدرسة أرسطو وأفلاطون الذهنية، مثل مدرسة "بور رويال" (ROYAL -PORT) الفرنسية، ومدرسة "أوجدن وريشاردز" (RICHARDS OGDEN,) الإنجليزية عند المتأخرين، ومدرسة تشومسكي (CHOMSKY") عند المعاصرين القائل؛ إن اللغة هي صورة للبنية النفسية الشعورية للإنسان، وهي أيضا انعكاس لبنيته الفكرية الذهنية.

هذا التصور الذي لا يهتم بالحقيقة الاجتماعية الثقافية، هو الذي جعل مالينوفسكي غير راض وغير مبارك لمواقف بعض أعلام للسانيات، ومن ثم بدا منتقدا لتصوراتهم بلهجة منفعلة قائلا: "بما أننا نعرّف اللغة بأنها "التعبير عن الفكرة بوساطة الأصوات المنطوقة» (هنري سويت)، أوبأنها " طريقة تسمح بنقل الأفكار، والانفعالات، والاحتياجات بواسطة نظام من الرموز المنتجة تلقائيا" (سابير)؛ بما أننا نقبل ... بأن "أسس اللغة هو النشاط البشري، نشاط من يسعى إلى أن يفهم، ونشاط من يريد فهم ما في ذهن الآخر "(جسبرسن)، لن نستطيع أبدا دراسة السياق ولا حتى الأفعال المرتبطة؛ التي تعد مهمة [6]، ودفعه إلى انتقاد نمط الدراسة الذي ارتظته اللسانيات لنفسها.

إن اللسانيات الوصفية التي أرادت أن تكون بديلا عن اللسانيات التاريخية التي كانت تتناول اللغة من حيث أصولها الاشتقاقية، ... لا من حيث بنيتها وخصوصية نظامها، والتي

(اللسانيات الوصفي) تعهدت بوصف اللغة وصفا لغويا علميا؛ وعبارة "وصف اللغة وصفا لغويا علميا " تقتضي وصف اللغة من حيث هي وضع (CODE)، أي جملة من القواعد التجريدية الثابتة الجامدة، وأيضا من حيث هي استعمال (USAGE) في وضعيات تبليغية مختلفة، وفي أحوال خطابية متباينة، أي كجملة من التأديات المجددة والمتنوعة لتنوع معطيات عالم الخطاب، أو بعبارة أخرى لتنوع عناصر، وملابسات السياق الاجتماعي، أي المقام. وحتى عند أولئك الذين تحرجوا من فعل إقصائه وأدرجوه على مضض في دراستهم، لم يحسنوا توظيفه، وظل المقام يحتل مرتبة ثانوية، ويُنظر له على أنه عنصر ثانوي، أو أدنى من ذلك أي عرضي.

إن مالينوفسكي يكشف في كلمات موجزة عن حقيقة تعامل اللسانيات الوصفية، أو اللسانيات الحديثة مع اللغة من حيث هي واقع تواصلي، وفعل خطابي: « اللسانيات ترفض استعمال المقام بفاعلية.» [7] ورفض المقام هو في الحقيقة رفض للمعطيات الاجتماعية، وهو إقصاء للمجتمع في نهاية الأمر، نقصد دوره وأهميته في عملية التواصل والتخاطب. و إن بعض المدارس اللسانية الحديثة، وباختصار، ترفض الاعتراف بمبدأ أو بخاصية "التنوع اللغوي" (VARIATION LINGUISTIQUE)، وتختصر الأفعال اللغوية، والسلوكات اللسانية التي هي في تفاعل مستمر مع الحياة الاجتماعية والثقافية في أنظمتها المعيارية الثابتة. [8] مالينوفسكي يدعو اللسانيات إذا ما أرادت فعلا أن تكون البديل العلمي، وأن تحافظ على لقبها "العلم النموذجي"؛ إلى أن تجعل المعطيات الاجتماعية والثقافية بمثابة الأرضية التي تنطلق منها، أو بمثابة "الخلفية التي يجب الرجوع إليها لتحديد القصد من تلك الكلمات أو الجمل التي قد توحي بأكثر من معنى." [9]

مالينوفسكي ينظر إلى اللغة نظرة وظيفية، ولهذا يجعل الدارسون مالينوفسكي ممثلا للنظرية الوظيفية اللغوية في الأنثروبولوجيا. إنه يرى أن الثقافة هي كل متكامل، أوهي بنية كبرى تندرج ضمنها عناصر صغرى، أوبنيات صغرى تتكامل في النهاية. وتعد اللغة أحد هذه البنيات، لكنها بنية أساسية وجوهرية؛ لأنها تلعب دورا نشطا وفعالا في وصف السلوك اللغوي للأفراد والجماعات. إنه دور نشط وفعال لأنه يؤثر في بقية العناصر، ويتأثر بها، ويتفاعل معها، ويتميز عنها، وهذا ما يجعل مالينوفسكي يصف اللغة بأنها قوة ثقافية" (FORCE CULTURELLE) إضافة إلى كونها قوة تنظيم اجتماعي. [10] ومن ثم فإن الخطابات التي ينتجها المتكلمون في تداخل يومي ومستمر مع الحياة العملية التواصلية، وفي تفاعل متواصل مع الثقافة التي تميز تلك المجموعات اللسانية. هذه الثقافة التي تترك بصماتها ماثلة في اللغة، فتقوم اللغة، من خلال بنيتها، باحتضانها وباحتضان فضاءات الحياة اليومية، وترجمتها من خلال تراكيبها، ووحداتها، وأدواتها.

إن الواقع، في الحقيقة، لا تتضح دلالاته، ولا تستبين معانيه إلا من خلال التمعن في المرآة العاكسة له، وهي الواقع الخارجي، وهذا كوهن يستهل كتابه (POUR UNE SOCIOLOGIE DU LANGAGE) بأول جملة تدعم ما ذهب إليه مالينوفسكي وتزكيه:

" اللغة المنطوقة هي أداة تواصل الرجال في المجتمعات، فالرجل لا وجود له إلا في إطار مجتمع، والمجتمع لا يوجد إلا إذا كان هناك تواصل بين الرجال."[11] إذن هناك علاقة ثلاثية الاتجاه بين الإنسان (كمتكلم)، واللغة (كأداة تواصل)، والمجتمع (كفضاء واسع لممارسة عملية التواصل)

ثانيا: اللغة أداة فعل وإنجاز:

ما يميز دراسة مالينوفسكي للغة عن نظيراتها من الدراسات العقلية والنفسية هو أنها دراسة للغة باعتبارها؛ جزءا من المسار الاجتماعي، وعنصرا من عناصر الحياة الاجتماعية. وعليه، فإن اللغة ليست قناة لوصف عوالم فكرية، ونفسية، وإنما اللغة - كما تجلت له من خلال تتبعه لممارسة القبائل لها في حياتها اليومية- هي "صيغة للفعل" (MODE OF FUNCTION)، و"أداة إنجاز". فهي تملك "قوة الفعل" و"قوة التأثير" لإنجاز الأعمال، والوظائف. فـ" اللغة هي أساسا وسيلة تنفيذ وليست وسيلة لقص الحكايات ."[12] إنها إذن أبعد من أن تكون كلاما مسترسلا أو مجرد كلمات متسلسلة تهدف إلى وصف المشاعر، ونقل الأفكار، والتعبير عنها.إنها وسيلة لتنفيذ الأعمال، وتحقيق الوظائف، وقضاء حاجات الإنسان أكثر من بنية لغوية، ووظيفتها الأساسية انجاز الأفعال، وأداء المهمات، والتأثير في سلوكات المتخاطبين. اللغة في نظره هي أكبر من أن تكون بنية أو نظاما من الوحدات المتقاربة، إنها نظام لغوي شامل تديره، وفي الآن ذاته، علاقات داخلية وخارجية، وتتحكم فيه، وبالتوازي، المعطيات اللغوية، وكذا المعطيات الاجتماعية والثقافية. ومن ثم فإن مالينوفسكي وكل اللغويين الذين تبنوا آراءه يصفون اللغة " في علاقتها بالعالم الموصوف، لا بالذهن الواصف "[13] ويحللون اللغة من زاوية الاستعمال الحي، والفعلي في إطار المجتمع وفي "واقع عملي" (IN OPERATION).

لقد كان الانشغال الأكبر لمالينوفسكي حينما كان ينتقل بين القبائل البدائية، وبين المجتمعات الحديثة، ملاحظا ومحللا؛ هو البحث عن "الوظيفة" (FUNCTION) التي تؤديها اللغة في المجتمعات، وإيجاد إجابة عن السؤال الذي ظل يشغله وهو: كيف تشتغل اللغة في المجتمعات البدائية المختلفة منها والحديثة؟ إنه ومن خلال اعتماده الملاحظة المباشرة للغة وهي تمارس وظيفتها، ومن خلال تتبعه للمجتمع في استعماله للغة في أداء حاجياته، يتوصل إلى أن اللغة في إطار وظيفتها الاجتماعية يتجاذبها نوعان من الملفوظات، متقابلان داخل نظامها:

1- ملفوظات جارية في الاستعمال ، وظيفتها ؛ تحقيق فعل ما أو إنجاز وظيفة معينة

2- ملفوظات أخرى جارية في الإستعمال أيضا ليست لها وظيفة محددة، وإنما تستعمل فقط لتوطيد العلاقات الاجتماعية.

وهذا الصنف من الملفوظات أو هذه الوظيفة التي يؤديها هذا النوع من الملفوظات يسميها مالينوفسكي "الوظيفة التواصلية" (PHATIC COMMUNIUN).

الهوامش:

(1)Meillet Antoine, Linguistique Historique Et Linguistique Generale, Ed Champions, Paris, 1982, P: 72

(2) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

(3)Malinovski bronislav, les jardins de corail, tra cliquart. P: 237

(4) المرجع السابق، ص: 238

(5) Malinovski. B ,argaunauts of the western pacific an account of native entreprise and advanture, in the archipagoes of malensia new ginea , ed .dutton et company, london, 5 th ed, 1921

(6) malinovski. B , les jardins de corai, p: 299

(7) المرجع السابق، هامش الصفحة نفسها.

(8) و يعلل كثير من الدارسين ، خاصة العاملين في حقل اللسانيات الاجتماعية ، إخفاق كثير من النظريات اللسانية إلى عاملين جوهريين هما: أولا : تجاهل هذه النظريات اللسانية لحقيقة التفاعل الحاصل بين اللغة والمجتمع، و إلى عدم اكتراثها بهذا الانصهار بين بنية اللغة وبنية المجتمع. ثانيا: انعدام الاجتهادات، وخلو النظريات التي تبحث في نوع العلاقة الرابطة بين اللغة والمجتمع، وتجتهد في البحث عن "طبيعة" هذين القطبين، علما أن معظمها لا ينفي وجود هذه العلاقة! لمزيد من الاطلاع أنظر كتاب:

Marcellesi.j.r et gardin .b, introduction a la sociolinguistique, coll. Langue et langage, lid . Larousse, paris, 1974, p : 206..

(9) لطفي مصطفى، اللغة في إطارها الاجتماعي، دراسة في علم اللغة الحديث، معهد الإنماء العربي، طرابلس، الجمهورية العربية الليبية، طبعة جديدة، بيروت، لبنان، 1980، ص: 7. ينظر أيضا : المسدي عبد السلام، اللسانيات من خلال النصوص، ص : 175- 176.

(10)malinovski. B coral gardens and their magic, p : 257

مفهوم "القوة الثقافية" الذي جاء به مالينوفسكي وأورده في كتابه منذ عام 1935، نجد أن كوهن مشال (COHEN M) يعبر عنه بمفهوم آخر هو "قدرات اللغة" (PUISSANCES DU LANGAGE) عام

1956. كما نجد أن "أوستن" (AUSTIN. j) يطرح في نظريته الجديدة مفهوما يقترب كثيرا مما جاء به مالينوفسكي، وهو عبارته "FORCES llocutoires"

(11)Cohen Michel, Pour Une Sociologie Du Langage, Ed Michel Albin, Paris, 1956, Chap, p : 35.

(12)Malinovski , Coral Gardens And Their Magic, P 291

(13) الفاسي الفهري عبد القادر، اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال، المغرب، الدار البيضاء، ط1، 1985، منشورات عويدات، بيروت، ط1 ، 1986، ص: 380